تاريخ الحيـــاة العلمية

فى جامع النجف الأشرف

للأستاذ ضياء الدين الدخيلى

(تابع)

وتدل الآثار أنه كان فى عهد عضد الدولة حول القبر الشريف الملوى مدرسة اسلامية فيها الفقهاء والقراء يتعاهدها بخيراته ذلك الملك العمرانى المحب للعلم وأهله[1]

ففى فرحة الغرى عن يحيى بن عليان الخازن بالقبر الكريم أنه وجد بخط ابن البرسى المجاور بمشهد الغرى على ظهر كتاب بخطه : قال توجه عضد الدولة عام ٣٧١ هـ إلى المشهد الشريف الغروى وزار الحرم المقدس فكان مما فرقه ألف درهم على الناحة (الذين ينوحون على الحسين) وثلاثة آلاف درهم على الفقراء والفقهاء . وروى ابن مسكويه فى تجارب الأمم (ص ٤٠٧ ج ٦) وابن الأثير (ص ٢٣٤ ج ٨) أنه فى عام ٣٦٩ أطلق عضد الدولة الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالغرى وغيرهم من ذوى الفاقة وأدرت لهم الأقوات

* */*

وفى أثناء عهد عمارة عضد الدولة حصل حادث مهم فى تاريخ جامع النجف الأشرف كان له الأثر الفعال فى تمركز التدريس فيه ، فقد هاجر إلى الغرب العلامة شيخ الطائفة محمد أبو جعفر الطوسى فأقام نهضة علمية كبرى ونظم الحركة الفكرية وقواها ورفع منار الثقافة الاسلامية فأم النجف الأشرف من سائر أقطار الشيعة جمع غفير ليرتشفوا أفاويق العلم، وقد صارت فى ذلك اليوم مركزاً مهماً من مراكز العلوم الاسلامية الكبرى وأنشئت فيها المدارس الكثيرة والمكتبات من قبل سلاطين الشيعة ووزرائهم وأهل الثروة والعلماء أنفسهم

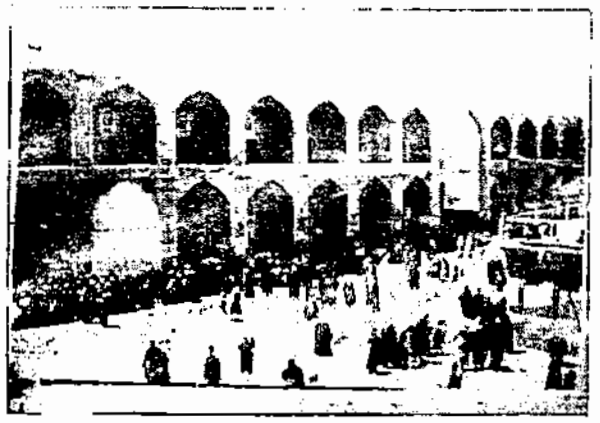

الجانب القبلي من جامع النجف الأشرف

قدم الطوسى عام ٤٠٨ فدرس على الشيخ المفيد ببغداد مدة حياته وبعد موته على السيد المرتضى صاحب الأمالى، وكان السيد يجري عليه شهرياً اثنى عشر ديناراً كما يجري على تلامذته كل سنة. ولقد عظمت منزلته أخيراً وأصبحت له مكانة علمية أقبلت عليه بطلاب العلم. حدث فى (روضات الجنات) ورجال المامقانى أن فضلاء تلاميذه الذين كانوا من المجتهدين يزيدون على ثلاثمائة فاضل من الشيعة، أما من أهل السنة فما لا يحصى، وأن الخلفاء العباسيين فى بغداد أعطوه كرسى الكلام ، وكان ذلك لمن كان وحيداً فى ذلك العصر . وكانوا مبالغين فى تعظيم العلماء لا فرق لديهم بين المذاهب الاسلامية، ولكن الوشايات أخذت تدب حول هذا العلم حتى اضطرته أخيراً أن يغادر الزوراء ويشد الرحال إلى جوار ابن عم الرسول وهناك يقيم دعائم مدرسته. حكى القاضى فى مجالسه عن ابن كثير الشامى أن الطوسى كان فقيه الشيعة مشتغلا بالافادة فى بغداد إلى أن وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة (وهذه الفتن الداخلية هى التى خضدت شوكة الاسلام حتى انهار مجده) سنة ٤٤٨ هـ واحترقت كتبه وداره فى باب الكرخ فانتقل من بغداد إلى النجف وبقى هناك إلى أن توفى سنة ٤٦٠ هـ . وأضاف فى الروضات احتراق كرسيه الذى كان يجلس عليه للكلام . وحكى[1] جماعة أنه وشى بالشيخ إلى الخليفة العباسى فاستدعاه ؛ غير أن الطوسى استطاع أن يزيل ما علق بخاطره فرفع شأنه وانتقم من الساعى وأهانه . وقال ابن الأثير (ج ٩ ص

(١) قال السيوطى فى بغية الوعاة: كان عضد الدولة بن بويه أحد العلماء بالعربية والأدب له مشاركة فى عدة فنون وله فى العربية أبحاث حسنة؛ وكان كامل العقل غزير الفضل حسن السياسة شديد الهيبة بعيد الهمة ذا رأى ثاقب، تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ودانت له العباد والبلاد. وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة وأول من لقب فى الاسلام شاهنشاه وله صنف أبو على الأيضاح والتكملة ، وهو الذى أظهر قبر على ابن أبى طالب وبنى عليه المشهد مات . عام ٣٧٢ ببلة الصرع

(١) الروضات ولؤلؤة البحرين ومجالس القاضى ورجال المامقانى

٢٢٢) وفى سنة ٤٤٩ سهبت دار أبى جعفر الطوسى بالكرخ وهو ففيه الامامية وأخذ مافيها وكان قد فارقها إلى المشهد الغروى . هاجر الشيخ الطوسي إلى النجف الأشرف وسكنها وبقى يدرس اثنتى عشرة سنة ، وألف كتباً قيمة فى التشريع الاسلامى لم تزل مراجع؛ للعلماء فمنها (تهذيب الأحكام) و(كتاب الاستبصار فيما اختلف من الأخبار) و (المبسوط) و (الفهرست) و (ما يعمل ومالا يعمل) و (المجالس) الخ. ثم بقى تلامذته بعدوفاته عند مرقد الامام واستمر التدريس والمهاجرة إلى المعهد العلمى النجفى حتى ظهر فى الحلة المحقق الأول صاحب شرائع الاسلام (المتوفى عام ٦٧٦) فاتجه رواد العلم إليه وقامت حركة فكرية قوية فيها فيما بعد، من أنطابها تلميذه العلامة الحلى صاحب المؤلفات القيمة الكثيرة فى الفقه وأصوله والكلام وغير ذلك وفى أثناء ازدهار الحركة العلمية فى الحلة لم تضمحل فى جاراتها النجف، فهذا الشيخ الرضى يفرغ من تأليف كتابه الشهير فى النحو عام ٦٨٣ هـ فى الغرب ، والرضى كما قال السيوطى فى بغية الوعاة (ص ٢٤) هو الامام المشهور صاحب شرح الكافية لابن الحاجب الذى لم يؤلف عليها بل ولا فى غالب كتب النحو مثله جمعاً وتحقيقاً وحسن تعليل. وقد أكب الناس عليه وتداولوه واعتمده شيوخ هذا العصر فمن قبلهم فى مصنفاتهم ودروسهم ، وله فيه أبحاث كثيرة مع النحاة واختبارات جمة ومذاهب، ينفرد بها وله أيضاً شرح الشافية فى الصرف . قال فى (الروضات) توطن الشيخ الرضى بأرض النجف الأشرف. وصنف شرحه المشهور على الكافية أيضاً فى تلك البقعة المباركة، وذكر فى خطبته أن كل ما وجد فيه من شىء لطيف وتحقيق شريف فهو من بركات تلك الحضرة المقدسة، توفى عام ٦٨٦ انتهى. وقد نقل لى بعض الفضلاء أن الرضى ألف شرحه فى مكتبة الامام (ع) التى فى الصحن الشريف وأنها كانت مكتبة عظيمة وحتى الآن لا تزال بقاياها تحوى نفائس الكتب ، من جملتها قرآن بالخط الكوفى كتب عليه أنه بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع)، ومن ضمنها كتب علمية وأدبية نادرة قديمة الخطوط جداً، ويوجد فيها شرح الدريدية لابن خالويه بخطه؛ ولكن لا ينتفع اليوم بنفائس هذا الكنز لأنه مقبور بالاهمال؛ وكان على مديرية الأوقاف العراقية أن تعهد بهذه المكتبة إلى رجل ضليع لينظمها ويعرضها لاستفادة رواد العلم وإلا فان تبعثرها وضياعها واضمحلالها أقرب النتائج المترقبة

وقد احترقت هذه المكتبة عام ٧٥٠ هـ وجددها جماعة من العلماء منهم ابن الآوى الذى كان صدراً للحكومة الأيلخانية وفخر المحققين ابن العلامة الحلى (كما أخبرني الأستاذ السماوى)

(الايوان الذهبي وفى وسطه المدخل للحرم الداخلى)

جدد تعمير بناية القبر عام ٧٦٠ هـ بعد احتراق عمارة عضد الدولة بعمارة رابعة ذكرها مؤلفو القرن الثامن الهجرى مجهولا صاحبها يظن أنه من رجال الحكومة الايلخانية ، وقد أصلحها الشاه عباس الأول من أعظم ملوك إيران المتأخرين ، وفى عهد هذه العمارة قويت الهجرة إلى جامع النجف الأشرف فى عهد المقدس الأردبيلى (المتوفى عام ٩٩٦ هـ) وكان عالماً فاضلا مدققاً جليل القدر له عدة مؤلفات منها آيات الأحكام قد فسرها فيه وأرجع إليها قضايا الفقه، وله شرح الهبات التجريد وتعليقات على شرح المختصر للعضدى وشرح لارشاد الأذهان فى الفقه . وقد تولى الدرس فى مدرسة الصحن الشريف، وكانت له حجرة فيه، هاجر إليه طلبة العلم وتخرج على يده جماعة من النوابغ منهم العلامة السيد محمد العاملى صاحب المدارك فى الفقه وشرح القصائد العلويات السبع لابن أبي الحديد فى مدح الأمير (ع) وشرح الشواهد المدرجة فى شرح بدر الدين لألفية أبيه ابن مالك وهو كتاب جليل مفعم بالفوائد غزير المادة الأدبية . وممن درس على الأردبيلى صاحب المعالم أحد الكتب المقرر تدريسها فى جامع النجف الأشرف . ولنعد إلى بناية القبر الفخمة فانها تضعضعت وحصلت صدوع فى القبة المنورة بمرور العصور وتعاقب الأعوام، وأراد الشاه صفى حفيد الشاه عباس الأول توسعة ساحة الصحن الضيقة فأمر بهدم بعض جوانبه وشيدت هذه العمارة الضخمة الباقية إلى اليوم وفى هذه العمارة كانت القبة الكريمة والايوان والمئذنتان مبنية بالحجر القاشانى إلى عهد ملك إيران نادر شاه

أما هذا فقد نذر إذا فتح الهند أن يذهب قبر الامام (ع).
وكذلك لقد أمر عام ١١٥٥ هـ بقلع الحجر القاشاني عن القبة المقدسة والمأذنتين والايوان وتذهيبها، وبذل أموالا عظيمة فقام بالتذهيب أكثر من مائتي صائغ ونحاس قد جمعهم من سائر أقطار الأرض وفيهم الصيني والهندي والتركي والفارسي والعربي وقد طليت كل آجرة بمثقالين من الذهب الخالص على ما ذكر بعض الصاغة الذين تولوا إصلاح القبة أخيراً

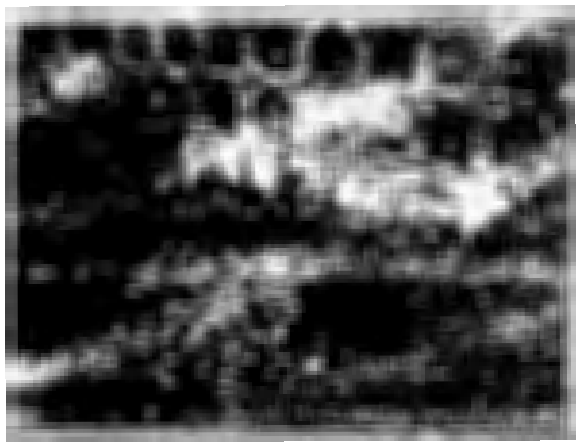

الجانب الشمالي من جامع النجف الأشرف وفيه مظاهرة إسلامية

وقد وضع في خزانة القبر الشريف تحفا جسيمة مما استلبه من ذخائر ملوك الهند، هذا فضلا عما أهدى إليها غيره من الملوك والأمراء المسلمين، ففيها من المجوهرات والنفائس مالا يثمن، وإن الأحجار الكريمة لا تعد ولا تحصى. أما القناديل الذهبية المرصعة والسجاد الفاخر الموشى بالذهب والستائر المنتظمة فيها الجواهر، الأمور التي تعز على — الملوك فهي أعلاق ونفائس تبهر العقول ولا يصدق اجتماعها في أعظم الكنوز

وإن بداعة الفن في البناية تبهر الأنظار وتخلب الأفكار بزخرفها وطلائها. وقد قال رحالة مصري: (وقبة القبر ومئذنتاه تكسى بالذهب الخالص في بريق خاطف. جزت الباب إلى الفناء السماوي المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلت باب الضريح، وأنى لقلمي الكليل أن يصف إبداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور والزجاج والقيشاني ما فاق فيه جميع المساجد الأخرى) وإن هذه الحجرات كانت مساكن لطلبة العلم قبل أن تشاد المدارس العديدة

وعسانا نعود لدراسة النواحي الأخرى المهمة من جامع النجف الأشرف وحياته العلمية والأدبية

« العراق — النجف الاشرف » ضياء الدين الدخيلي

بين اللغة والأدب والتاريخ

الفالوذج

للأستاذ محمد شوقي أمين

— ٢ —

صلاحية معجزة نبي. أخلاطه. شهرة النشا به. زعفرته. زبنته اللوزية. لونه. أكان يؤكل حاراً. وصفه بالترجرج. رقة جوانبه. أكان يؤتدم به.

وكما تمنى ذلك العربي، في ظرف وتملُّح، أن تكون صفة الفالوذج آية من الآي، وتنزيلا في التنزيل، بل موضع سجدة، ومحراب ضراعة؛ إغلاء بالوصف، وإعلاء لكلمة الموصوف: ترشّحي أخ له من بعد أن يكون الفالوذج معجزة نبوة، وبرهان رسالة، فانه في حساب هذا العربي الفكه، لجدير أن تهفو إليه القلوب، وتجتمع عليه الارادات؛ وما هي إلا أن يؤمن الناس بمن يجيء بالفالوذج من عند الله: دليل إيحاء، ومظهر إعجاز ... فقد ذكر أبو هلال[1] أن أعرابيًا سئل عن رأيه في الفالوذج، فقال: والله لو أن موسى أتى فرعون بفالوذج لآمن به، ولكنه أتاه بعصاه!

— ٣ —

وأخلاط هذه الحلواء: لباب البر، ورضاب النحل، وخالص السمن[2] وكان يضاف إلى هذه الأخلاط: النشا. ولعله لباب البر نفسه قال الأصمعي: النشا: شيء يعمل به الفالوذ[3]، فانظر: كيف يذكر النشا بالفالوذج، وكيف صارت نسبته إليه تعريفاً به؟ وإنما جاء ذلك من بعد صيت الفالوذج، وذيوع صفته، ولن يُعرَّف شيء بآخر، حتى يكون الآخر أوسع شهرة، وأندى صوتاً ...

وكان الزعفران كذلك من أدوات الفالوذج، فقد وصف رجل طعاماً أكله عند بعض الناس، فقال:[4] أتانا بأرزّة ملبونة، في الطبرزد مدفونة، وفالوذجة مزعفرة مسمونة. ولا أوقن:

(١) ديوان المعاني (الاول — ٢٩٨)
(٢) عيون الاخبار (الثالث — ٢٠٣)
(٣) المخصص (الخامس — ٢١)
(٤) خاص الخاص (٤٤)